قصة من دار الأيتام

خيرة بن سعيد

في يوم ممطر بارد، طرقت إحداهن باب دار الأيتام، و انسحبت متوارية عن الأنظار، فتحت المربية الباب فلم تجد أحدا، كادت أن تغلقه لولا انبعاث صوت بكاء، نظرت إلى الأسفل لتجد لفافة قماش وردية، حملتها بين يديها و أدخلتها مسرعة و توجهت بها نحو مكتب المديرة..

- سيدة كاميليا

- نعم يا نهاد، تفضلي

دخلت المكتب بخطوات طويلة وهي تقول:

- وجدتها أمام الباب، إنها رضيعة

وقفت السيدة كاميليا و راحت نحوها، لمست اللفة فوجدتها مبللة فقالت:

- يا إلهي، إنها مبللة! غيري لها ملابسها بسرعة قبل أن يصيبها الزكام ثم خذيها إلى الطبيبة لتفحصها، أراكما بعد حين.

غابت المربية نصف ساعة ثم عادت مجددا و دخلت مكتب المديرة..

- ها هي يا سيدتي

حملتها بين يديها و هي تقول:

- بسم الله ما شاء الله! إنها جميلة جدا و صغيرة.

- ماذا ستسمينها يا سيدتي؟

نظرت المديرة نحو النافذة فلمحت الزهور الموجودة في الحديقة فقالت:

- سيكون اسمها رفيف بإذن الله

كانت تنظر إلى الرضيعة ذات العينين الرماديتين و قلبها ينبض بقوة فخاطبت نفسها قائلة:

- ماذا يحدث لي؟ لم قلبي يهتف لك من دون الأطفال الباقين؟ ما المميز فيك لهذه الدرجة؟

ثم قربتها إلى أحضانها و أغمضت عيناها تستمع إلى أنفاسها الصغيرة، و قادتها ذاكرتها إلى ما قبل خمس سنوات..

كانت السيدة كاميليا تجلس مع زوجها عند طبيبة النساء..

- سيدة كاميليا يؤسفني إبلاغك أنك لا تستطيعين الإنجاب.

طأطأت كاميليا رأسها شعورا بالضعف، فقال زوجها و هو يقبل يداها:

- كل هذا بيد الله يا عزيزتي، لا أريد أطفالا يكفيني أنك معي

ابتسمت لقوله و هي تمسح دموعها، ثم خرجا و توجها إلى المنزل.

مرت الأيام، الأسابيع و الأشهر.. لاحظت فيها كاميليا أن زوجها قد تغير، كان يدخل المنزل ليلا و يغادره صباحا.. يأكل، يشرب و ينام، حتى أنه كان لا يبيت هناك في بعض الليالي.. و ذات يوم سألته و هو يشرب قهوته الصباحية:

- هل تريد بعض الجبن يا عزيزي؟

قال و عينيه ملتصقتين بالجريدة:

- أجل من فضلك

ناولته قطعة الجبن و هي تقول:

- عزيزي، ما رأيك أن نخرج سويا لتناول الغذاء في مطعم ما؟

- غير ممكن، لدى عمل اليوم

قالت كاميليا بغضب:

- عملك لا ينتهي!! لقد تغيرت كثيرا يا أحمد!

وضع الجريدة من يده ثم قال:

- ماذا تقصدين بتغيرت؟

- لم تعد تهتم بي كما ذي قبل

- أخبرتك، العمل يأخذ كل وقتي

- أجل صحيح، يشغلك الوقت عني و عن الاهتمام بمصاريف البيت، و عن حياتنا...

قال بجدية:

- هل تريدين سماع الحقيقة؟

- أجل من فضلك

- لقد تزوجت، كل زملائي في العمل يتباهون بأولادهم إلا أنا، تعبت من تفاخرهم علي و شعوري بالحرمان من الأبوة مع أنك أنت العاقر و ليس أنا، أنت المذنبة في هذا.

أدمعت عيناها و هي تسمع ما يتفوه به زوجها ثم قالت:

- تعايرُني؟! طلقني

و انطلقت مسرعة نحو غرفتها، غسلت وجهها و لملمت ثيابها في حقيبة صغيرة و رحلت إلى بيت عائلتها.

حاولت عائلتها أن تجد حلا يناسب الطرفين، لكنها أصرت على قرارها، و تم الطلاق بالفعل. مر عام على ذلك، كانت كاميليا تعاني في صمت حتى خرجت ذات يوم من غرفتها عازمة على تغيير هذا الوضع، و ذهبت إلى دار الأيتام لتعمل هناك، و بلطفها و حنانها على الأطفال جعلتها المديرة مساعدتها الخاصة و علمتها شؤون الإدارة بالإضافة إلى شهادتها الجامعية.

و بعد أن تقاعدت المديرة السابقة، أوصت أن تكون السيدة كاميليا خليفتها في المنصب، و هكذا أصبحت هي المديرة و قدمت حياتها خدمة للميتم..

انهمرت الدموع من عيناها فسألتها المربية:

- هل أنت بخير يا سيدتي؟

لم يأتها الرد، فسألتها مجددا:

- سيدتي؟!

استفاقت كاميليا على صوتها فقالت:

- آه، ماذا قلت؟

- سألتك إن كنت بخير؟

- أجل، أنا آسفة.. أنا بخير، اسمعي أخبري سالم أن يضع سريرا لها في غرفتي، ستبقى معي منذ الآن فصاعدا

- حسنا سيدتي

مرت السنوات و كبرت رفيف حتى صارت بعمر العشر سنوات، و ذات يوم قررت السيدة كاميليا أن تأخذ بعض الأطفال في رحلة إلى الغابة، و بينما هم ينزلون منحدرا، فقد السائق السيطرة على الحافلة، انتبهت السيدة كاميليا لذلك فذهبت إليه..

- ماذا يجري يا ياسين؟

- سيدتي، لا أعرف ما الذي يحدث، لا أستطيع التحكم فيها

- حاول أن تقلل من السرعة

- الفرامل لا تعمل سيدتي

- ماذا؟

ذهبت نحو رفيف الجالسة في الخلف و ربطت لها حزام الأمان، و أمرت الأطفال بفعل ذلك أيضا..

- سيدتي ماذا يحدث؟

- رُبى من فضلك تفقدي أحزمتهم واجلسي أنت أيضًا

- ماما!!

- حبيبتي رفيف، ابقي في مكانك ولا تتحركي، حسنا عزيزتي؟!

أومأت الطفلة برأسها موافقة، فتحركت السيدة كاميليا نحو السائق وجلست بجانبه، تحاول تشجيعه على المقاومة.

- حاول أن تتجاوب مع الانعطافات بسلاسة، لا تتوتر ولا تهلع، جميعنا نؤمن بأنك ستخرجنا من هنا بخير، حسنا!

- سأحاول يا سيدتي.

- أحسنت

أخرجت السيدة هاتفها لتتصل بالشرطة و بينما هي تتحدث معهم قاطعها السائق قائلاً:

- سيدتي هنالك منحدر أمامنا.

- يا إلهي! حاول البقاء فوق المسار أرجوك، اللهم احفظنا برعايتك، يا إلهي ساعدنا إنهم مجرد أطفال يتامى...

كانت كاميليا تدعي في سرها و هي خائفة، حتى وصل السائق إلى منعطف خطر ولم يستطع النجاة منه، فانقلبت الحافلة بين الأشجار.

فتحت المديرة عيناها و هي في المستشفى..

- آه، رأسي!

- سيدة كاميليا

- نهاد! رأسي يؤلمني.. آه، أين الأطفال؟ هل هم بخير؟ و رفيف هل هي بخير؟ هل حدث لهم شيء؟.. أخبريني!! و ماذا عن ياسين؟

- هوني عليك يا سيدتي، جميعهم بخير، قال الطبيب أن بإمكانهم الخروج مساءًا

- الحمد لله، الحمد لله.

و بينما هما كذلك، دخلت رفيف إلى الغرفة..

- ماما!!

- ابنتي حبيبتي، تعالي بجانبي

قفزت الصغيرة فوق السرير، فصرخت بها نهاد:

- رفيف! لا تقفزي هكذا إنها مريضة!!

التفتت إليها كاميليا و هي تبتسم:

- لا بأس دعيها، فهي دوائي، زهرتي الندية.

- أحبك أمي

- و أنا أيضا يا ابنتي

مرت أربع سنوات على الحادث، و بينما كانت السيدة كاميليا في مكتبها مشغولة بتوقيع الأوراق، دخلت عليها امرأة و معها المحامي الخاص بها، فقالت نهاد و هي تنظر إليهم:

- سامحيني يا سيدتي، لقد أخبرتهم أنك مشغولة، لكنهم لم يستمعوا إلي.

- لا بأس، اتركينا لوحدنا و أغلقي الباب خلفك.

- حسنا سيدتي

قالت السيدة كاميليا و هي تتوجه نحوهم:

- تفضلوا بالجلوس

قالت المرأة ببرود:

- لم نأت للجلوس، جئت لأسترد ابنتي

كانت نبضات كاميليا تزداد بسرعة و هي تنظر إلى هاته العينين الرماديتين، ثم سألتها:

- و من هي ابنتك؟

- وضعتها منذ أربعة عشرة سنة أمام باب الميتم، في يوم شتاء ممطر.

قالت كاميليا و هي تستبعد الفكرة التي في رأسها:

- جاءتني العديد من الفتيات منذ أربعة عشرة سنة، أعطني تفاصيل أكثر.

قالت المرأة واصفة:

- بشرتها بيضاء، رمادية العينين، لديها وحمة على ذراعها الأيمن، كما أنها كانت ترتدي قلادة ذهبية تحمل نجمة صغيرة.

- مستحيل، لا يمكنك ذلك..

- ماذا قلت؟

جلست السيدة كاميليا في مقعدها متعبة ثم استجمعت قواها وقالت:

- لا أذكر أننا استقبلنا أحدا بهذه المواصفات.

تدخل المحامي قائلا:

- سيدتي المديرة نادي على المربيات، و ابحثي في الملفات جيدا

صرخت كاميليا:

- قلت ليس لدينا أحد بهذه المواصفات، أخرجوا من مكتبي حالا، نهاد!! أخرجيهم!! نهاد!!!

عاد المحامي ليقول:

- لا يمكنك طردنا يا سيدة

- خرجوا من مكتبي

- ستندمين على فعلتك.

كانت نهاد تدفعهم إلى الخارج، و هم يستشيطون غضبا، و فور أن ابتعدوا

خرجت السيدة كاميليا تجري وهي تبحث عن رفيف، حتى وجدتها في الحديقة، فارتمت في أحضانها وهي تبكي:

- عزيزتي، لن أدع أحدا يأخذك مني، أنت ابنتي أنا، أنا وفقط

- أمي!! هل أنت بخير؟ لم تبكي؟

-لا شيء يا عزيزتي، أريدك أن تعرفي أنني أحبك و سأحبك دوما، و أنك ابنتي أنا.

في المساء، عادت المرأة مجددا و أحضرت معها الشرطة..

- سيدي الشرطي، هذه هي..

- ماذا هناك؟

قال الشرطي:

- سيدتي المديرة، هذه المرأة تقول بأنك أخذت ابنتها.

- لا، لم أفعل، هي من رمتها منذ زمن.

- و لقد جئت الآن لأستعيدها.

- هل هي سلعة لتستعيديها؟ إنها إنسانة، هات أوراقك القانونية و ستذهب

معك و بينما هم كذلك، دخلت رفيف المكتب..

- أمي! ماذا هناك؟

صرخت كاميليا قائلة:

- رفيف!! اذهبي إلى غرفتك فورا

التفتت المرأة نحو الفتاة التي تقف عند الباب، ثم جرت إليها بعدما لاحظت الوحمة على ذراعها..

- نجمة؟! هذه أنت!!

- لا، دعيها وشأنها ليست هي..

قفزت كاميليا من مكتبها بسرعة ثم أردفت:

- رفيف، قلت اذهبي إلى غرفتك

- أمي!!

لاحظ الشرطي توتر كاميليا و صراخها فأوقفها قائلا:

- هدئي من روعك يا سيدتي المديرة، لم كل هذا التوتر؟

- أطلب منها ألا تلمس ابنتي

- جئنا لاستعادة فتاة واحدة، و يبدو أننا قد وجدناها

- لا، يا حضرة الشرطي أرجوك لا تفعل هذا، إنها ابنتي أنا، لقد رمتها و هي رضيعة.

التفت الشرطي نحو المرأة و أمرها أن تأخذ ابنتها و ترحل، فقالت رفيف و هي تنظر إليهم مندهشة:

- أمي؟! ماذا يحدث؟

أمسكت المرأة بيدها و قالت:

- نجمة، أنت ابنتي أنا و ليس هذه السيدة

- لا! لست أمي.. كاميليا هي أمي و اسمي هو رفيف.

- يبدو أنك لا تسمعين الكلام، تعالي معي، هيا لنذهب

و جذبتها المرأة من ذراعها نحو الخارج

- لا!! أريد أمي.. دعيني.. أمي! أمي!!

- رفيف! حبيبتي! كانت كاميليا تبكي وتحاول اللحاق بهم لكن الشرطي أوقفها قائلا:

- إن لم تعودي إلى مكتبك فإنني سأعتقلك يا سيدتي، هل تفهمين؟

عادت كاميليا إلى الداخل، وانهارت بالبكاء فوق مكتبها.

مرت الأيام ولم تعد كاميليا تلك السيدة المرحة، كانت تغلق باب غرفتها وتمتنع عن الخروج منها، ساءت حالتها النفسية و الجسدية حتى سقطت طريحة الفراش..

- سيدي الطبيب، هل هي بخير؟

- إنها ضعيفة جدا يا نهاد، يجب نقلها إلى المستشفى..

دخلت السيدة كاميليا إلى المستشفى، و بقيت أسبوعا فاقدة الوعي، و عندما استيقظت وجدت جميع الأطفال حولها فابتسمت، و مع الدواء و والرعاية الصحية تحسنت حالتها و عادت إلى الدار.

مرت سنين أخرى، و كبرت السيدة كاميليا، كانت تجلس في مكتبها عندما دخلت عليها نهاد:

- سيدتي هنالك زائر في الخارج!

- لست في مزاج لاستقبال أحد.

- حتى أنا يا أمي؟! دفعت رفيف الباب و دلفت الغرفة..

- رفيف!! تعالي يا فلذة كبدي!

- أمي، لقد اشتقت إليك

- و أنا أيضا يا صغيرة

عانقت كاميليا ابنتها و شدت قبضتها عليها..

- أتعرفين؟! حياتي لا تساوي شيئا بدونك، لم أنسك يوما و لا دقيقة، أخبريني هل هي جيدة معك؟

- أجل، لا بأس بها، لكن ليست بقدر حنانك و عطفك، إنها متزوجة من رجل ثري يعاملني كابنته، لا يبخس علي في شيء.

- الحمد لله أنك بخير، لو استطعت لخبأتك في قلبي، و لم تطلك يداها.

- ستظلين دائما أمي، مهما قصر الزمن أو طال.

***